واستولوا على مدينة صوفيا عام ١٣٨٥ م، ونيش في عام ١٣٨٦ وسالونيك عام ١٣٨٧ م (٣٧). وكان في هذا التقدم تهديداً مباشراً لدولة الصرب الذي كان يتولى امرها في هذه المرحلة الامير لازار Lazar (١٣٧١ ــ ١٣٨٩ م)، لذلك نقض عهد والده بتعبيته للعثمانيين، وتصدى الابن للقوات العثمانية وهزمها في اقليم البوسنة Bosnia عام ١٣٨٨ م ولكن العثمانيين اعادوا تنظيم صفوفهم مرة اخرى حيث تقابلت مع القوات الصربية في قوصوة Kossovo وفي الخامس عشر من شهر حزيران عام ١٣٨٩ م وقعت المعركة المشهورة. وحالف النصر الصربيين في بداية الامر وقتل مراد وهرب الجناح الايمن للجيش العثماني، فتولى بايزيد الاول ادارة المعركة والدولة (١٣٨٩ ــ ١٤٠٢ م) وواصل بايزيد الحرب ونجح في الانتصار على الصرب واسر لازار وعدداً من اعوانه فقتلهم جميعاً. وبانتصار العثمانيين على الصرب في موقعه قوصوة سقط مركز المقاومة في شرق اوربا ضد العثمانيين، وقد سهل هذا من فرص العثمانيين في فرض سيطرتهم على البلقان (٣٨).

كان السلطان بايزيد الاول اكثر شدة من ابيه مراد في مهاجمة ماتبقى من ممتلكات الامبراطورية المحتضرة. وضيق الخناق على القسطنطينية، وعندما فشلت المحاولة الكبرى التي بذلها امراء غرب اوربا للقضاء على الخطر العثماني وانقاذ القسطنطينية، وذلك على اثر هزيمتهم في موقعه نيقوبوليس عام ١٣٩٦ م، شن بايزيد هجوماً عنيفاً على القسطنطينية في العام التالي. وفي نفس الوقت قام بغزو بلاد المورة. ومن حسن حظ البيزنطينيين ان تقدم المغول بقيادة تيمورلنك Timur-lenk في هذه الفترة والحقوا بالاتراك العثمانيين هزيمة كبرى في موقعه انقرة عام ١٤٠٢ م. ووقع بايزيد في اسر تيمورلنك حيث مات بعد اقل من عام (٣٩). ونتيجة لذلك حصلت الامبراطورية البيزنطينية المتداعية على مهله امتدت عشرين عاماً. ولكن سرعان ماأستأنف مراد الثاني (١٤٢١ ــ ١٤٥١ م) الهجوم. ففي عام ١٤٢٢ م هاجم مراد القسطنطينية بدون ان يوفق في الاستيلاء عليها (٤٠). بعدها ظلت العلاقات بين التوتر والسلام، ولم يعش الامبراطور مانويل طويلاً فقد مات في عام ١٤٢٥ م

(37) Halil, Op. cit, P. 11.

(38) Finlay, Op. cit, PP. 583-584.

(39) Finlay, op. cit, p 601-2, Vasiliev, op. cit, p. 629-630, p. 16.

(40) Halil, op. cit, p. 19.

بعدها نصب ابنه يوحنا الثامن على عرش القسطنطينية. والواقع ان الامبراطورية في عهد هذا الامبراطور يوحنا كانت تلهث انفاسها الاخيرة، حيث لم تعد لها السيطرة في خارج اسوار القسطنطينية الا على بضعة مواقع محدودة مثل انخيالوس ومسيمبرا واثوس والمورة. ونتج عن ذلك قلة موارد الدولة وماترتب على ذلك من نتائج في كافة المجالات حتى شلت مرافق الدولة. ولم تعد الامبراطورية قادرة على الصمود امام هجمات الاتراك العثمانيين فسقطت مدينة مودون Modon الواقعة في سه جزيرة المورة عام ١٤٢٥ م، اي في العام الاول من توليه الامبراطور يوحنا الثامن في يد الاتراك. وبعد خمس سنوات وفي عام ١٤٣٠ م سقطت سالونيك، وغنم الاتراك من هاتين المدينتين غنائم كثيرة اضافة الى ما أخذوه من اسرى (٤١).

وبالرغم من الجهود التي بذلها الامبراطور يوحنا الثامن وحلفاؤه الاوربيون ولاسيما يوحنا هونيادي حاكم ترانسلفانيا في مقاومة العثمانيين وما الحقوه من هزيمة في موقعه قونوفيزا Kunoviza عام ١٤٤٣ م، فقد واصل العثمانيون تقدمهم وفي موقعة فارنا Varna عام ١٤٤٤ م قضوا على آخر الجهود الكبيرة التي بذلها الغربيون لايقاف تقدمهم في شرق اوربا. وقد سقطت امارة اثينا في أيديهم. واضطرت امارة المورة بعد شن الهجوم عليها لدفع الجزية عام ١٤٤٦ م. كما هزم العثمانيون يوحنا هو نيادي في موقعه قوصوة الثانية عام ١٤٤٨. ولم تبق على قيد الحياة اذ ذاك الا القسطنطينية كقلعة منيعة وكرمز للامبراطورية البيزنطينية الطاعنة في العمر (٤٢). وقد جاء دور هذه المدينة لتسقط في يد السلطان محمد الثاني / الفاتح الذي اعتلى العرش عام ١٤٥١ م حتى عام ١٤٨١ م وعقد العزم على الاستيلاء عليها.

منذ ان اعتلى محمد الثاني العرش العثماني صمم على اخضاع القسطنطينية وقد صادف ان كان على العرش الامبراطوري قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٩ ــ ١٤٥٣ م) الذي بدأ عهده اول الامر باعلان ولائه للسلطان العثماني مراد الثاني، ولكن مراد مات بعد قليل فخلفه ابنه محمد الثاني وتعكر صفو العلاقات بين بيزنطة والاتراك، وقد اشار المؤرخين الى أن السبب الرئيسي يعود الى رعونة وتهور الامبراطور قسطنطين الحادي عشر حينما طالب بزيادة المبلغ الذي يدفع له لقاء

(42) Stanford, op. cit, p. 51-2.